المعنى الوظيفي لحـــرف الجـــرّ حرف (الباء) وأثـــره في فهم النص القرآني واستنباط الأحكام الشرعية

أ. حنان صالح عبد الله فنير ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة الزنتان.

المُقدّمــة :

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب الله ويرضى والصلاة والسلام على نبيه الذي اصطفى:

فإنه لا يخفــى على أيّ أحد أهمية اللغة العربية في فهم مراد الله في كتابه الكريم وللقواعد النحوية أثر واضح في أحكام الفقه الإسلامي ودور كبير في تأسيس المذاهب الفقهية فكثير من المسائل الفقهية التي تعتمد في استنباطها على القواعد النحوية ، فكم من آية اختلف معناها لاختلاف إعرابها ، فالفقيه بحاجه إلى النحو لأنه يعين على فهم المعنى ، كما أن معرفة الأحكام بحاجة لمعرفة أدلتها ولا سبيل لذلك إلاّ بالتبحر في علوم اللغة العربية والتي من أهمها النحو ، قال ابن حزم [1] "إنه لابد للفقيه أن يكون نحوياً لغوياً وإلا فهو ناقص ولا يحل له أن يفتي لجهله بمعاني الأسماء وبُعده عن فهم الأخبار" [2] فإن لسان العرب لمّا كان من أشرف الألسنة ؛ إذ منه يتوصل إلى مقاصد الشرع في أحكامه وأغراض قواعــد العلم وأعلامه ، وكان مُقسماً إلى تقسيمه المعروف من الأسماء والأفعال والحــروف وكانت الحروف أكثر دوراً ، ومعنى مُعظمهما أشد غوراً ، وتركيب أكثر الكلام عليها ، ورجوعه في فوائده عليها – نظرت إلى هذا بمنظار قريب فهداني الله - سبحانه وتعالى - أن أكتب بحثاً في حروف المعاني وأردتُ أن أتعرض لمسألة حــروف الجــرّ وأثرها الكبير في توجيه المعاني والترجيح عند الخلاف، وبخاصة في المسائل الفقهية ، ولأن الحديث عن حروف الجــر يطول فقد وقع الاختيار على حرف الجر الباء لما له من معانٍ كثيرة من خلال سياقات الآيات القرآنية واستنباط الأحكام الشرعية وفهم النص القرآني .

أهداف الدراسة :

تأمل الباحثة تحقيق الأهداف التالي ذكرها:

1 ـ الوقوف على أهمية إتقان قواعد اللغة العربية بالنسبة لعلماء أصول الفقه لتأكيد الصلة الوثيقة الخاصة بين علم النحو وبين علم التفسير وأهمية توجيه المعاني من خلال حرف الجر (الباء) .

2 ـ التعريف بحروف المعاني عامة وحروف الجرّ منها ، خاصة وبيان أهميتها وسبب تسميتها .
3 ـ توضيح معاني حرف الجر الباء من خلال كتب النحو .
4 ـ إبراز أثـر تنوع معاني حرف الجر (الباء) في الاختلافات التفسيرية من خلال بعض النماذج .
5- توضيح مـدى ارتباط علوم اللغة بعلوم الدّيـن.

منهج البحث :

المنهج المتبع هو الاستقرائي الوصفي حيث تم استقراء معاني حرف الجر (الباء) في كتب النحو ثم إعطاء نماذج وثم توضيح الأثر المترتب عليها في كتب التفسير والفقه .

خطة البحث :

لهذا البحث خصوصية جعلت الباحثة تتناوله في مقدمة وتمهيد وأربعة مطالب فكان المطلب الأول تعريف الحرف وأقسامه ، وأما المطلب الثاني فتناول حروف الجر وتسميتها وأهميتها ، وتناول المطلب الثالث حرف الجر البـاء ، وتوضيح معانيه والمطلب الرابع كان توضحياً لنماذج تشـرح أثر البـاء في فهم النص القرآني واستنباط بعض الأحكام الشرعيـة ، ثم الخاتمـة والتوصيـات.

التمهيد :

إن دراسة علم أصول الفقه لحروف المعاني لها من الأهمية ما لا يقل عن أهمية دراستها في علم النحو، لأن أكثر الكلام العربي يتوقّف على معرفة معناه ، والاستفادة منه تتوقف على معرفة معاني الحروف، والأدوات التي تربط بين الأسماء والأفعال ، ومن ثم فإن حروف المعاني تشتد الحاجه إليها حيث إن كثيراً من مسائل الفقه ينبني عليها ، ولذلك يقول السيوطي(3) " اعلم أن معرفة ذلك – حروف المعاني – من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقفها ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها(4) ، ولعل من أهم حروف المعاني : حروف الجر التي يصل عددها إلى عشرين حرف وكل هذه الحروف لها معانٍ منها الحقيقي ، ومنها ما هو مجازي ،وتتناوب معانيها في السياقات المختلفة ، وقد وصفها بعض الفقهاء بقوله : "وهي باب دقيق المسالك، لطيف المآخذ،كثير الفوائد جميل المحاسن ، جُمع فيه بين لطائف النحو ،ودقائق الفقه ، واسُتودِع فيه غرائب المعاني، وبدائع المباني"(5) . ولا شك أن حرف الجر الباء ليس بمعزل عن الوصف ، فقد أولاه علماء أصول الفقه اهتماما بالغاً .

المطلب الأول ـ تعريف الحرف وأقسامـــه:

ينقسم كلام العرب إلى ثلاثة أقسام : الأسماء ، الأفعال ، الحروف لا يخرج عنها .

تعريف الحرف لغة : هو الطرف من كل شيء، وهو واحد من حروف التهجي والأداة التي تسمى الرابطة لأنها تربط الاسم بالاسم والفعل بالفعل كعن وعلى ونحوهما، وكل كلمة تُقرأ على الوجوه من القرآن تُسمى حرفاً تقول : هذه في حرف ابن مسعود[6] أي: في قراءة ابن مسعود[7] .

الحرف اصطلاحا ـ عرفه النحاة عدة تعريفات منها :

1 ـ ما دلّ على معنى في غيره وليس له علامة يتميز بها كما للاسم وللفعل[8]

2 ـ كلمة لا تدل على معنى في نفسها وإنما تدل على معنى في غيرها بعد وضعها في جمله دلالة خالية من الزمان" [9] .

3 ـ حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل نحو :ثم ، سوف واو القسم"[10] ، وغيرها

إذاً فالحـرف كلمة ليس لها معنى في ذاتها ، وإنما يرتبط معناها بسياق الكلام الذي ذكرت فيه، بخلاف ما يُفهم من الاسم والفعل لو ذكرنا كلمة في ، أو إلى حتى مفردة دون جملة لا يمكننا تحديد معناها بخلاف لو ذكرنا كلمة المدرسة، فإننا نفهم أنها مكان للدراسة أو لو ذكرنا كلمة كتب لفهمنا منها معنى حدث الكتابة في زمن الماضي ولهذا فإن الحروف تختلف معانيها باختلاف السياق الذي ترد فيه .

أقسام الحروف : تنقسم الحروف في اللغة العربية على قسمين[11] :

1 ـ **حروف المبانـــي :** وهي حروف الهجاء التي تبنى منها صيغة الكلمة كالباء المفر دة والتاء والجيم ولهذا تسمى أحرف البناء .

2 ـ **حروف المعانـــي :** وهي حروف جاءت تفيد معنى جديداً ولهذا يقال حرف جاء لمعنى .

وتنقسم حروف المعاني على عدة أقسام :-

فباعتبار عدد الأحرف تنقسم إلى أحادية – وثنائية – وثلاثية – ورباعية – وخماسية و باعتبار العمل تنقسم إلى عامله وغير عاملة[12] .

أما باعتبار المعنى – والذي نحن بصدده – فهي تنقسم إلى خمسة أقسام[13] :-

1 ـ حروف العطف وجاءت عوضاً عن العطف .

2 ـ حروف النفي وهي عوضاً عن أنفي .

3 ـ حروف الاستثناء : جاءت عوضاً عن أستثني أولا أقصد .

4 ـ حروف الاستفهام : جيء بها عوضاً عن استفهم .

5 ـ حروف الجر جاءت لتنوب عن الأفعال التي بمعناها فالباء نائب عن أَلِصق مثلاً والكاف نابت عن أُشبّه .

المطلب الثاني ـ حروف الجر ، تسميتها وأهميتها :-

أولاً: تعريفها : هي الحروف التي تصل ما قبلها بما بعدها فتوصل الاسم بالاسم كقولك : الدار لعمرو والفعل بالاسم كقولك : مررتُ بزيد (14) فاللام في لعمرو أوصلت ملكية الدار بعمرو والباء في بزيد أوصلت وألصقت المرور بزيد ، وهي حروف مختصة بالأسماء ويعرب ما بعدها اسما مجرورا وهي عشرون حرفا جمعها ابن مالك (15) في ألفيته بقوله (16):

هاك حروف الجر وهي : من ، إلى حتى ، خلا ، حاشا ، عدا ، في ، عن ، على

مُذ ، مُنذُ ، رُبَّ ، اللام ، كي ، واو ، وتاء ، والكاف ، والباء ، ولعل ، ومتى

ثانياً ـ سبب تسميتها وأهميتها : علل البصريون سبب تسميتها بحروف الجر، لأنها: تعمل الجر فيما بعدها ظاهر " أو مقدر " أو محلا. أو لأنها تجر معاني الأفعال وشببهها إلى الأسماء التي بعدها ، وقد سماها الكوفيون حروف الإضافة ؛ لأنها تضيف معاني الأفعال إلى الأسماء ، ويسميها البعض حروف الخفض أو حروف

الصفات لأنها تحدث صفة في الاسم من ظرفيه أو غيرها(17) .

ثالثا ـ وجه الاحتياج إلى حروف المعاني في أصول الفقــه : إن معظم أسباب الاختلاف في أحكام الفروع الفقهية قائمة على أساس لغوي، مما يدعو للرجوع إلى اللغة ،رجوعاً كلياً، في توجيه قصد الإنسان بإصدار الحكم الشرعي على تصرفه . فقد ذكر الأصوليون أن هذه الأسباب ترجع إلــى : تردد الألفاظ بين العموم والخصوص ، ودلالة الخطاب والاشتراك الحاصل في الألفاظ المفردة والمركبة والاختلاف في الإعراب لأهميته في التميز بين المعاني التركيبية وتردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو على المجاز، من حذف أو زيادة أو تقديم أو تأخير، أو على الحقيقة أو الاستعارة والتعارض بين الشيئين في جميع أصناف الألفاظ التي تؤخذ منها الأحكام بالإضافة إلي الأُخرى سباب الأخرى للاختلاف من غير اللغة كالقياس والإجماع أو العرف أو الاستحسان.(18) قال الزركشي(19) : "وإنّما احتاج الأصولي إليها لأنها من جملة كلام العرب، وتختلف الأحكام الفقهية بسبب اختلاف معانيها"(20) ويقول ابن فارس(21) " رأيتُ أصحابنا الفقهاء يضمّنون كتبهم في أصول الفقه حروفاً من حروف المعاني"(22)

ففي قولـه - تعالى- : **(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)** (23) تحديداً لوقت الصيام والذي يدل على ذلك مجيء حرف الجر (إلى) لانتهاء الغايـة فالشيء إذا حُدَّ إلى جنسه دخل في الغاية وإلا فلا، وبما أن الليل ليس من جنس النهار فإنه لا يأخذ حكم ما قبله ويترتب على هذا القول

عدة أحكام، كإباحة الأكل والشُرب ،وسائر المفطرات بدخول الليل إلى طلوع النهار، وحُرمة الصوم بالليل، كما يُحرم الفطر بالنهار من غير عذر في أيام الصوم ، وحرمه وصل الصوم في الليل وهذا سر مجيء حرف الجر إلى حتى لا يدخل ما بعده في حكم ما قبله أنه ليس من جنسه، فالليل ليس من جنس النهار ، فإلى كحتى موضوعتان للغاية في اللغة ، وغاية الشيء منتهاه ،فإذا انتهى لم يكن بعده إلا ضده (24)

المطلب الثالث ـ حرف الجر الباء ومعانيه :

عرفنا أن حروف الجر قسم من أقسام حروف المعاني، لدلالتها على معان متعددة ومختلفة تستفاد من السياق الذي وردت فيه ، ولكل حرف من حروف الجر معنى أصلياً إليه ترد سائر معانيه الأخرى وللباء عدة معانٍ ذكرها صاحب الألفية بقوله .(25)

بالباء استعن وعدّ عوضّ ألصق...ومثل مع ومن وعن بها انطق.

وزيد والظرفية استبن ببا وفي وقد يُبينان السببا

إذاً فمعاني حرف الباء أربعة عشرة معنىً يُمكن توضحيها بما يلي [26]:-

1- الإلصاق : هو المعنى الأصلي لحرف الجر الباء ، لا يفارقها ويكون حقيقياً مثل : أمسكتُ بزيد إذا قبضتُ على شيء من جسمه ، ويكون مجازياً نحو مرتُ بزيد ، أي : ألصقتُ مروري بمكان يقرب من زيد.

2- التّعدية : وتُسمّي باء النقل - أيضاً - وهي المعاقبة للهمزة في تغيير الفاعل مفعولًا وأكثر ما تعدي الفعل القاصر تقول في ذهب زيد : ذهبتُ بزيد وأذهبته ' ففي ذهبتُ بزيد، أي : كنتُ مُصاحباً له في الذهاب ، وعلى هذا المعنى قوله – تعالى- : (**ذَهَبَ اللهُ بنُورِهم)** [27] ، فالباء في بنورهم للتعدية

3- **باءُ الاستعانة :** وهي الداخلة على آية الفعل لقولك : كتَبتُ بالقلم وكما في البسملة "بِسْمِ اللهِ الَّرحمن الَّرحِيم "[28] فالباء في (بسم) للاستعانة وتقدير الكلام أقرأ أو أتلو مستعيناً بالله ومنه قوله - تعالى - **(واسْتَعِينُواْ بِالصّبْرِ وَ الصّلاة)** [29] ' فالباء للاستعانة.

4- **باء السببية :** وهي التي ترتّب أمر على أمر مثالها قوله – تعالى- : (**إنّكُم ظَلَمْتمْ أنفُسَكُمْ باتخاذكم العِجل)** [30] فظلمهم أنفسهم سببه عبادة العجل ومنه قوله – تعالى- : (**فَكُلا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ)**[31] أي : عاقبناهم بسبب استكبارهم في الأرض، وهذا المعنى كثير الورود في القرآن الكريم .

5- **باء المصاحبـــة :** كقوله – تعالى - : **(ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ)** [32] أي : ادخلوا الجنة مصحوبين بالسلامة وهي هنا بمعنى مع .

6- باء الظرفيـــة : وهي إمّا أن تدل على مكان كقوله - تعالى- :**(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ)** [33] فهي بمعنى في، أي : في بدر كقولك : زيدُ بمكة ، أي : في مكة ، وإمّا أن تدل على الزمن وذلك كقوله - تعالى - : **(إلاّ آلَ لُوْطٍ نَجّيْنَاهُم بِسَحَرٍ)** [34] أي : وقت السحر وهو قُبيل الصبح .

7- باء المقابلة : وهي الداخلة على الأعواض كقوله – تعالى- : **(الحرُّ بِالحُرِّ وَالعَبْدِ بِالْعَبْدِ بالأُنثـى)** [35] فالباء هنا باء المقابلة والمعاوضة والتقدير الحـر مأخوذ بالحر والعبد مأخوذ بالعبد والأنثى بالأنثى.

8- باء المجـــاوزة أو السؤال : أي بمعنى : عن ومثاله قوله - تعالى - : **(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرًا)**[36] ، أي : فاسأل عنه وهو من معاني الباء بعد فعل السؤال وكقوله - تعالى - : **(سَأَلَ سَائِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)** [37] ، أي : عن عذاب واقع ، فالباء هنا بمعنى عن .

9- **باء الاستعلاء :** أي بمعنى : على ومثاله قوله - تعالى - :**(وَمِنْ أَهْلِ الكتابِ مَا إنْ تَأمَنْهُ بِقنطار يُؤَدّهِ إليكَ)** [38] أي : على قنطار ، وكقوله - تعالى - : (وَإذَا مَرُّوا بِهِم يَتَغَامَزُونَ)[39] أي : مرّوا عليهم.

10- البدلية : وهى التي تجيء موضع " بدل " نحو قوله - صلي الله عليه وسلم - : " **ما يسُّرني بها حُمُرُ النِّعم"**[40] أي : بدلها .

11- **باء الغاية** : وهى التي تأتي بمعنى : " إلى " التى تفيد انتهاء الغاية ، ومثاله قوله - تعالى - :**(فَقَدْ أَحْسَنَ بِي رَبّي إذ أخْرَجني مِنَ السِّجْنِ)** [41] أي: أحسن إلـيّ ربي ، فالفعل (أحسن) إذا أُريد به الإحسان بمعاملة الذات فهو يتعدى بالباء وإذا أُريد به إيصال النفع المالي تعدى بـ " إلى " فتقول : أحْسِن إلى فلان، أي : أكرمه مالياً.

12- باء التبعيض : فتكون بمعنى (مِن) التى تفيد التبعيض كقوله – تعالى- : **(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجّرِونَها تفْجِيرًا)** [42] أي : يشرب منها بمعنى : بعضها .

13- باء القســـم : كما في قوله - تعالى - :**(قال رَبِّ بِمَا أنْعَمْتَ عَليّ فلن أكُونَ ظَهِيرا لِلمُجرِمِينَ)**[43] فهذه الباء للقسم ، أي : أقسم بإنعامك عليّ لأتوبنّ.

14- **باء التوكيد** : وهي الباء الزائدة فحذفها من الكلام لا يُخل المعنى وذكرها يفيد التوكيد كقوله - تعالى- : **(وكَفَى بَاللّهِ حَسِيْبا)**[44] ، فالباء زائدة جاءت للتوكيد ، أي : كفى الله حاسبا لأعمالكم ، وكقوله - تعالى- : **(وَلاَ تَلْقُوا بَأيْديكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ)**[45] فالباء في (بأيديكم) زائدة والتقدير ولا تلقوا أيديكم.

المطلب الرابع ـ نماذج تبين أثر حرف الجر (الباء) في فهم النص القرآني واستنباط بعض الأحكام الشرعية

من النصوص التي فهمها بعضهم خلاف ما يوافــق مراد الشرع ما ورد عن معاني الحروف والأدوات التي تربط بين الأسماء والأفعال وأهميتها في أصول الفقه

أولاـ في قوله- سبحانه وتعالى- :**(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** [46] عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: **" سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ . قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ"** [47].

وبالنظر إلى هذين النصين – القرآن والحديث – نجد أن هناك تعارضاً واضحا بينهما حيث أن النص القرآني ظاهره أن المؤمن يدخل الجنة بعمله بينما نص الحديث أن المؤمن لا يدخل الجنة إلا بفضل الله حتى أكرم الخلق سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وللعلماء أقوال في الجمع بين النصين ودفع التعارض ترجع إلى معنى حرف الجر (الباء) في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف وهي :

1-أن الباء للسببية وليس المراد أصل الدخول للجنة وإنما نيل منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون قال أبو حيان [48] " وقوله : **(بما كُنْتُم تَعمْلُون)** ظاهــره في دخول الجنة بالعمل الصالح [49]، وهذا الذي دلّ عليه الحديث أن الأعمال ليست هي السبب في دخول الجنة ابتــداءً فلا تعارض بين الحديث والآية .

2- أن الباء في الآية هي باء السببية ، أي : بسبب أعمالكم دخلتم الجنة كما دلّ عليه ظاهر الآية ؛ لكنه بسبب قاصر يحتاج إلى تتميم وتتميمه في الحديث والذي نفاه الحديث هو المقابلة بمعنى أن أعمالكم ليست عرضا وثمنا كافيا في دخول الجنة ؛ بل لابد من عفو الله فهذا المعنى لا يدخل أحد الجنة مقابل عمله فقط ؛ وإنما - أيضا - بفضل الله ورحمته [50].

3- ما ذكره ابن هشام أن الباء للمقابلة وهى الداخلة على الأعواض نحو اشتريته بألف وكافأت إحسانه بضعف وقولهم هذا بذاك ومنه قوله – تعالى - : **(ادْخُلوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون)** ، وإنما لم نقدرها باء السببية كما قال الجميع في (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله) ؛ لأن المعطي بعوض قد يعطي مجانا ، وأما المسبب فلا يوجد بدون السبب ، وقد تبيّن أنه لا تعارض بين الحديث والآية لاختلاف مُحملي الباءين جمعا بين الأدلة [51].

4- فالجمع بين الحديث وبين الآية وجهٌ آخـر، وهو أن يكون الحديث مفسرا للآيات ويكون تقديرها : **(وتلك الجنة التى أورثتموها بما كُنتم تعملون)** [52] ، وقوله - تعالى - : **(وكلـوا واشربوا هنئيا بما كنتم تعملون)** [53] و" ادخلـوا الجنة بما كنتم تعملون "[54] مع - رحمة الله - لكم وتفضله عليكم ؛ لأن فضله ورحمته - تعالى - لعباده في اقتباس المنازل في الجنة ، ولا يخلوا شيء من مجازاة الله عباده من رحمته ، ألا ترى أنه - تعالى - جازى على الحسنة عشراً وجازى على السيئة ، واحدة وعلى هذا تكون الباء للملابسة أو المقابلة وليست السببية [55].

ثانيا : في قوله - تعالى - : **(يَأَيُّها الذّينَ آمَنُـوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاَةِ فَاغْسَلُوا وُجُـوهَكُمْ وَأَيْديكم إلى المَرَافق وامْسَحُوا بِرُءُوسِكُم وأرْجُلَكم إِلَى الكَعْبَينِ)**[56] اتفق الفقهاء على أن مسـح الرأس من فروض الوضوء ؛ ولكنهم اختلفوا في مقدار المسح وسببه الاختلاف في تأويل معنى الباء الداخلة على كلمة (برؤوسكم) فذهب المالكية والحنابلة إلى أنه يجب مسح جميع الرأس أخـذاً بالاحتياط ودليلهم على ذلك أن الباء هنا زائدة للتأكيد والمعنى امسـحوا رؤوسكم وقالـوا : إن آية الوضوء تشبه آية التيمم وقد أمر الله بمسح جميع الوجه في التيمم **(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ)** [57] " ولما كان المسح في التيمم عاما لجميع الوجه فكذلك مسح الرأس ولا يجزئ مسح البعض وقد تأكد ذلك بفعل النبي – صلى الله عليه وسلم - حيث ثبت أنه كان إذا توضأ مسح رأسه كله ويرى الحنفية أنه يفترض مسح ربع الرأس أخذاً بفعل النبي - صلى الله وعليه وسلم- بسمحه على الناصية، ودليلهم على ذلك أن الباء للتبعيض وليست زائدة والمعنى امسحوا بعض رؤوسكم إلا أن الحنفية قدروه بربع الرأس لما روى عن المغيرة بين شعبة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في سفر فنزل لحاجته ثم جاء فتوضأ ومسح على ناصيته ،أما الشافعية فقالوا يكفي أن يمسح أقل شيء يطلق عليه اسم المسح ولو شعرات أخذًا باليقين ودليلهم على ذلك أن الباء للتبعيض، وأقل ما يطلق عليه اسـم المسح داخل يقين وما عداه لا يقين فيه فلا يكون فرضاً وإنما يحمل على النّدب فالباء يحتمل أنها تعني بعض الرأس وتعني جميع الرأس إلا أن السنة دلت على أن مسح بعض الرأس يكفي لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - مسح بناصيته أما حملها على معنى الباء في آية التيمم في قوله - تعالى - : **(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم)** فليس بالصحيح ؛ لأن مسح الوجه في التيمم بدل غسله فلا بد أن يأتي بالمسح على جميع مواضع الغسل منه ولا يكفي بعضه فمسح الرأس أصل وليس بدل وهذا فرق ما بينهما [58] وفي هذا رد على المالكية والحنابلة قولهم بأنه يفترض مسح جميع الرأس، وفي الرد على الشافعية والحنفية

استدلالهم بحديث المغيرة يقول القرطبي "أجاب علماؤنا عن الحديث فقالوا: "لعل النبي - صلى الله عليه وسلم - فعل ذلك لأنه كان في سفر وهو موضع الاختصار والاستعجال ثم هو لم يكتفِ بالناصية حتى مسح على العمامة فلو لم يكن مسح الرأس واجبا لما مسح على العمامة"[59].

ثالثا : في قوله - تعالى - :(**فستبصرُ وَيُبْصَرُون بأَييِّكُمُ المَفتون**)[60] اختلف أهل التأويل في تأويل قوله – تعالى- :" **بأييكم المفتون**" فقال بعضهم : تأويله بأيكم المجنون كأنه وجّه معنى الباء في (بأييكُم) إلى معنى (في) ويكون تأويل الكلام ويبصرون في أيّ الفريقين المجنون في فريقك يا محمد أو في فريقهم وقال آخرون: بل تأويل ذلك بأيّيكم المجنون وكأنهم وجهوا المفتون إلى معنى الفتنة أو المفتون، أي : ليس له عقل ولا عقد رأي ، أي: أن المفتون بمعنى : المجنون ، أي : الذي فُتن بالجنون ، ويرى غيرهم أن معنى ذلك أيّكم أولى بالشيطان فالباء على قول هؤلاء زائدة [61] ومثلوا : لذلك بقول الراجز [62]

نَحْنُ بَنُوجَعْدة أصحاب الفَلَجْ نَضْرِبُ بالسيفِ ونرجو بالفَرَج

أي : نرجو الفرج ، فالباء زائدة

وأرجح الأقوال من قال أن المعنى بأيكم الجنون ووجّه المفتون إلى الفتون ، أي: بمعنى المصدر ؛ لأنه أظهر المعاني فلا يجوز جعل الباء زائدة لأنه غير جائز أن يكون في القرآن شيء لا معنى له [63].

رابعا : من الآثار المترتبة على معنى الباء فيما يتعلق بالطلاق اختلاف الفقهاء في قول الرجل لزوجته : "إنْ خرجتِ بغير إذني فأنت طالق "هل ينبغي الإذن في كل مرة أم يكفي مرة واحدة ؟ ذهب الامام أبو حنيفة إلى القول بأنه لا بد من الإذن في كل مرة وذلك لأن استثناء اليمين مفرغ والمستثنى هو الخروج الذي يتعلق بالجار والمجرور – الباء وغير - فيكون التقدير (لا تخرجي إلا خروجاً ملصقاً بإذني لأنه جعل كل خروج شرطاً لوقوع الطلاق واستثنى خروجاً موصوفاً بكونه ملتصقاً بالإذن لأن الباء في قوله (إلا بإذني) حرف إلصاق[64] ، وعند الإمام الشافعي والإمام مالك أن اليمين تقدمت بخروج واحد لأن هذه الحروف (أي : الباء) لا تقتضي التكرار فلم يحدث بما بعد الأول بخلاف لو قال كلما خرجت بغير إذني فأنت طالق فخرجت بغير إذنه ، طُلقت في كل خروج بغير إذنه ثانية وثالثة لأن كلما تفيد التكرار[65]، وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بأنه يحتاج إلى إذن في كل مرة [66] ، ومنه تعليق الطلاق بمشيئة الله أو بإرادته

أو برضاه ، كقوله أنت طالق بمشيئة الله ، فإنه لا يقع الطلاق وذلك لأن معنى الباء هنا للإلصاق على أصلها فيكون الطلاق مُلصقاً بمشيئة الله وقع الطلاق لأنه أخرجه مخرج التعليل [67] ، ولو قال لامرأته طلقي نفسك ثلاثة بألف فطلقت نفسها واحدة وقعت بثلث ألف وذلك لأن الباء هنا تدل على البدلية فيوزع البدل (أي : الألف) على المبدل (أي : عدد الطلقات) فصار بإزاء من طلقة ثلث الألف [68] .

خامساً : ومن الأثار الفقهية المترتبة على الباء فيما يتعلق بأحكام البيوع قال أبو حنيفة :" الثمن إنما يتميز عن المثمَنَ بدخول حرف الباء عليه فإذا قال : بعتُ كذا بكذا فالذي دخل عليه الباء خو الثمن فقط وعلى هذا الفرق بنى مسألة البيع الفاسد فإن قال : بعتُ هذا الكرباس بثمن من الخمر صح البيع ، وإذا قال : " بعتُ هذا الخمر بهذا الكرباس لم يصح والفرق أن في الصورة الأولى الخمر ثمن وفي الصورة الثانية الخمر مُثمَّن وجعل الخمر ثمناً جائزا أما جعلهُ مُثمناً فإنه لا يجوز " [69].فحرف الباء يحدد جواز البيع من عدمه وهي للبدلية " فالباء التي تدخل في البيع والشراء تكون للتعويض فنقول :" اشتريتُ كتاباً بدرهم الباء للتعويض وهل مدخولها هو العوض أو ما سبقها هو العوض ؟ الحقيقة أن كل واحد منهما عوض عن الثاني لكنها دائماً تدخل على الثمن ولهذا قال الفقهاء: "يتميز الثّمن بالباء "[70] .

ومنه قوله ـ تعالى ـ :" **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ**"[71] الآيـة نزلت للتنويـه بـأهل غزوة تبوك فجعل الجنة ثمناً للنفس والمال فمن شأن البـاء أن تدخل علي الثمن في صيغ الاشتراء أُدخلت هنا لمشابهة هذا الوعد للثمن[72]

سادسا ـ الـباء في البسملة قيل: كل العلوم مندرج في الكتب الأربعة وعلومها في القرآن ، و علوم القرآن في الفاتحة وعلوم الفاتحة في (بسم الله الرحمن الرحيم) وعلومها في الباء من (بسم الله) ؛ لأن المقصود من كل العلوم وصول العبد إلى الله والبـاء باء الإلصاق يُلصق العبد بالله ، فهذا كمال المقصود فلذلك أختار الله ـتعالى- الباء على سائر الحروف في افتتاح كتابه[73]

الخاتمة:

1- إن لعلم العربية أهمية كبيرة وأثر جلي في استنباط بعض المسائل الفقهية التى لم تتضح دلالتها عند الفقهاء إلاّ عن طريق التحليل اللغوي والنحوي .

2- إن المباحث اللغوية التي يحتاجها الفقيه هي ما يتوقّف عليها فهم النص واستنباط الأحكام .

3- اختلاف الآراء النحوية والترجيـح بينها سبب رئيسي في اختلاف الفقهاء وتعدّد آرائهم في المسألة الواحدة .

4- أن المعنى الأصلي لحرف الباء هو الإلصاق ؛ ولكنها تخرج إلى معانٍ أخرى ، إلا أن الإلصاق يمكن أن نلمسه في كل تلك الاستعمالات والمعاني .

5- التوسّـــع الدلالي والثراء البلاغي في آيات القرآن الكريم من خلال اتباع أساليب متنوعة وتقنيات في الأداء التعبيري .

6- لحروف الجر أثر كبير في تغيير معنى الجملة من خلال سياقها .

7- حرف الباء هو واحد من حروف المعاني التي اشترك الأصوليون والنحويون في بحثها وهو يدل على معانٍ كثيرة غير أن أكثر المعاني أثراً في الأحكام الشرعية هو الالصاق ، والسببية، والتعدية ، والمصاحبة ، والتبعيض، والمقابلة .

التوصيات والمقترحات

1- تقديم دراسات وبحوث عن تأثير الأحوال الإعرابية والتأويلات النحوية في اختلاف آراء العلماء ومذاهبهم الفقهية بما يناسب القضايا المعاصرة .

2- اقتراح مادة (علم اللغة الشرعي) تدرس لطلبة قسمي اللغة العربية والدراسات الإسلامية تتناول الأحوال الإعرابية والتأويلات النحوية والدلالية في استنباط الأحكام الشرعية وتفسير آيات القرآن الكريم .

الهوامـــــــــــش :

1.ابن حـــــزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي وكبار علماء الأندلس ، ولد 994 م – قرطبة – إسبانيا توفي 1064م – راجع الاعلام ،خير الدين الزركلي (ط :15) دار العلم للملايين 2002 م) ج:4 ، ص 254 .

2.ينظر الإحكام في أصول الأحكام ، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، تح : أحمد محمد شاكر ، (دار الآفاق الحديدة ،بيروت ،) ج:1 ص:52.

3.السيوطي هو : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي له مؤلفات زادت عن خمسمائة مؤلف – رحمه الله- سنة 911 هـ - راجع الأعلام ، للزركلي ج:3 ،ص301 .

4.يُنظر : الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1974 م) ،ج :2 ، ص 166.

5.يُنظر كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام ،وبهامشه (أصول البزودي) ، علاء الدين عبد العزيز البخاري (ط: مطبعة ،1308 م) ج:2، ص :108 .

6.ابن مسعود هو :أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي صحابي جليل وفقيه ومقري ومحدث وهو أول من جهر بقراءة القرآن في مكة ولد 594 م وتوفي 650 م -راجع الاعلام للزركلي ،ج :7 ،ص216 .

7.بتصرف لسان العرب ، محمد بن مُكرم جمال الدين ابن منظور (ط:3 ، دار صادر ، بيروت ، 1414 هـ) ج:9 ص 41 ، مادة حرف .

8.بتصرف جامع الدروس العربية ، مصطفى الغلاييني ، (بيروت ، مكتبة الشـــــروق الدولية ، 2008 م) ج: 1،ص 7 .

9.يُنظر النحو الوافي ، عباس حسن ، (ط: 3 ، دار المعارف ، 1975 م) ج:1 ،ص:68 .

10.يُنظر الكتاب ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، سيبويه ،تح : عبد السلام هارون (ط:3 ،مكتبة الخانجي ، القاهرة 1988م) ج:1 ، ص :12 .

11.بتصرف : النحو الوافي ، عباس حسن ، ج:1 ، ص :70 -71 .

12.بتصرف الحروف العاملة ووظيفتها في اللغة ، صلاح عبد العزيز على السيد (ط:1، مكتبة الرضا 1989 م) ص : 3،4 .

13.بتصرف: الموجز في قواعد اللغة العربية ،سعيد الأفغاني ،(دار الفكر ،دمشق ، 2003 م) ص: 380 .

14.بتصرف: الأصول في النحو ، أبو بكر محمد بن سهل النحوي ، ابن السراج ، تح : عبد الحسين الفتلي ، (مؤسسة الرسالة ، لبنان) ج:3 ، ص :408 .

15.ابن مالك هو : محمد بن عبد الله بن مالك الطائي معروف بأبن مالك ولد بإسبانيا توفي سنة 1274 بدمشق له ألفية بن مالك والكافية الشافية لامية الأفعال وغيرها راجع الأعلام ج :5 ، ص 257 .

16.ألفية ابن مالك ، محمد بن عبد الله بن مالك الطائي ، (دار التعاون) ص : 34

17.بتصرف: الوافي في النحو ، عباس حسن ، ج: 1 ، ص :71 .

18.بتصرف: مجلة أم القرى، مجموعة من المؤلفين ، موقع المحلية على الأنترنت العدد : 21،ج: 7،ص:48

19.الزركشي هو أبو عبدالله بن بهادر بن عبدالله الزركشي أبو عبدالله بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول تركي الأصل مصري المولد والوفاة ولد 1433م وتوفي 1392م. له تصانيف كثيرة في عدة فنون راجع الأعلام ج:6،ص60.

20.يُنظر البحر المحيط في أصول الفقه، أبوعبدالله بدر الدين الزركشي (ط:1 دار الكتبي،1994م) ج:3،ص140.

21.ابن فارس هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي أبوالحسين من أئمة اللغة و الأدب له عدة مصنفات منها المجمل مقاييس اللغة والصاحبي ولد 941م توفي 1004م، راجع الأعلام ج:1،ص193.

22.يُنظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريا أبوالحسين (ط:1 محمد علي بيوض ،1997م)،ص87.

23.سورة البقرة، آيــة:187.

24.بتصرف : الجامع لأحكام القران محمد أحمد القرطبي : أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش (ط : 2 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1964م) ج : 2 ، ص : 327.

-و- لُباب التأويل في معاني التنزيل ، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن الخازن تح : محمد علي شاهين .(ط : ا دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415 ه) ج : ص،118.

25.ينظر ألفيه ابن مالك ، ابن مالك ، ص : 35 .

26.بتصرف مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، عبدالله بن يوسف جمال الدين ابن هشام ، تح :مازن مبارك ومحمد علي حمد الله (ط : 6 دار الفكر ، دمشق ، 1985م) ص : 138-140-و- الوجيز في أصول الفقه الإسلامي ، محمد مصطفى الزحيلي (ط : 2 دار الخير للنشر والتوزيع ، دمشق ، 2006 م) ج : 2 ، ص 197 -198 .

27.سورة البقرة ، آية :17 .

28.سورة الفاتحة ،آية :1.

29.سورة البقرة ، آية :45.

30.سورة البقرة ، آية :54.

31.سورة العنكبوت ، آية : 40 .

32.سورة : الحجر ، آية :46 .

33.سورة آل عمران ، آية : 123 .

34.سورة القمر ، آية : 34 .

35.سورة البقرة ، آية : 178 .

36.سورة الفرقان آية : 59 .

37.سورة المعارج ، آية : 1.

38.سورة آل عمران ، آية 75 .

39.سورة المطففين ، آية 30 .

40.الحديث رواه محمد بن إسحاق في السيرة عن حلف الفضول ومعناه أنني لاأحب نقضه ولو دفع لي حُمر النعم في مقابلة ذلك السيرة النبوية لأبن هشام ، عبد الملك أبن هشام ، تح ، مصطفى السقا وآخرون (ط:2 البابي الحلبي ، مصر ،1955). ،ج:1 ص 134 .

41.سورة يوسف ،آية : 100.

42.سورة الإنسان ، آية :6 .

43.سورة القصص ،آية :17 .

44.سورة النساء ، آية :6.

45.سورة البقرة ، آية : 195.

46.سورة النحل ، آية :9

47. معنى الحديث لو السداد والاعتدال في القول والعمل وتقربوا من الغاية ولا تفرطوا ، إن أحب الأعمال ما استمر منها و واظب عليه فاعله – راجع صحيح البخاري أبو عبد الله اسماعيل البخاري ، تح : مصطفى ديب البغا ، (ط: 5 دار ابن كثير ، دار اليمامة ، دمشق 1993) ج:5 ص 23.

48.أبو حيان هو : حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموي صاحب لواء التاريخ في الأندلس ولد 987 م وتوفي 1076 م راجع الأعلام ، ج : 2) ص 289 .

49.بتصرف البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ، تح : صدقي محمد جميل (دار الفكر) ، بيروت ، 1420 هـ) ج:6 ، ص 527 .

50.بتصرف مجموع الفتاوى ، أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد قاسم ، (مجمع الملك فهد للطباعة ، المدينة المنورة 2004 م) ج :8 ،ص :70 .

51. بتصرف المغنى اللبيب ابن هاشم ، ص : 141 .

52.سورة الزخرف ، آية :72 .

53.سورة الطور ،آية : 19 .

54.سورة النحل ، آية : 32 .
55.بتصرف الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم ، أحمد بن عبد العزيز بن مقرن القصير (ط:1 ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع ، السعودية ، 1430 هـ) ، ص 239 .
56.سورة المائدة ، آية : 6.
57.سورة المائدة ،آية :6 .
58. بتصرف: روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ، محمد الصابوني ، (ط: 3) مكتبة الغزالي ، دمشق ، 1980) ج : 1 ص : 539 ،- و – بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي (دار الحديث ، القاهرة ، 2004 م) ج: 1، ص 19.
59.الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، ج: 6 ، ص :88.
60.سورة القلم ، آية : 5- 6.
61.بتصرف جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : أحمد شاكر ومحمود شاكر (دار التربية والتراث ، مكة المكرمة) ج : 23 ، ص : 530 -و- معاني القرآن وإعرابه ، إبراهيم بن سهل أبو اسحاق الزجاج ، تح : عبد الجليل عبده شلبي ، (ط: 1 ، عالم الكتب ، بيروت) ج : 5 ، ص :205 .
62. النابغة الجعدي قيس بن عبد الله الكعبي شاعر أو صحابي من المعمرين كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام توفي 670 في أصفهان راجع الأعلام للزركلي ، ج : 5 ، ص : 207 .
63.بتصرف ، جامع البيان ، أبو جعفر الطبري ، ج : 23 ، ص 531 .
64.بتصرف بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، علاء الدين الساكافي ، (ط : 1 مطبعة الجمالية ، مصر ، 1328 هـ) ج: 3 ، ص : 43 .
65.بتصرف البيان في مذهب الأمام الشافعي ، أبو الحسين يحيى بن سالم العمراني اليمني الشافعي تح : قاسم محمد النوري ، (ط : 1 ، دار المنهاج ، جدة ، 2000 م) ج: 10 ، ص : 204
66. بتصرف بدائع الصنائع ، علاء الدين الساكافي ، ج : 3 ، ص :44 .
67. تح : عادل أحمد وعلي محمد معوض ، (ط:1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،1998 م) ج: 1 ص : 120
68. بتصرف المصدر السابق – ج :1 ،ص: 121 .
69.يُنظر المصدر السابق – ج : 1 ، ص 121.
70.يُنظر شرح ألفية ابن مالك ، محمد بن صالح العثيمين ،(دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الاسلامية الدرس 41 .
71. سورة التوبة ، آية : 111.
72.يُنظر التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي ، (الدار التونسية للنشر ، تونس ،1984م) ج:11 ، ص : 38 .
73.يُنظر مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) الفخر الرازي (ط:3، دار إحيـاء التراث العربي ، بيروت ،1420هـ) ج:1،ص:98